الظل والنار

الى الاخ الشاعر محمود درويش

في قلبي جرحان
وعلى الافق الشاحب ، للقمر الاسمر ، وجهان
وأنا ... لا زلت غريبا يبحر في المجهول
يبحث عن لؤلؤة .. ألقاها « كينو » ، بعد عذاب ،
في قاع البحر
يا لؤلؤتي الرائعة الثغر
يا خيط العمر
يا حلما ... تهمسه ، في قلبي ، أنفاس الفجر
في عيني اليسرى ، كالزنبقة الريا ، يخفق وجه ...
وبعيني اليمنى ، كالسوسنة الوسنى ، يعبق وجه...
فلقد أمسيت اثنين .. بظل فرد
يمتـد ....
ويمتد .....
ويمتد .....
يعبر سور الليل ، وينسل الى نافذة الشمس
يكسر طوق النفس
ليذوب على نار ... أوقدها «بوذا» في أحداق الصخر
فأعود بلا ظل ... أضرب في أعماق البحر
أبحث عن لؤلؤة ضائعة ،
عن نجمة قطب
ألقاها « كينو » .. عن صـدر « جوانا » .. منتصرا
للانسان
للموقد في صلب جليد الالب النيران
لرهين صاغ قلائد شعر لعروس الزنج
حبات القلب
للزارع في أرض الشر ... بذور الحب .

بغداد — **حسين جليل**

(*) كينو وجوانا ، هما الاسمان اللذان أطلقهما شتاينبك على رمزي الاسطورة التي كتب عنها قصته «اللؤلؤة»

الام آل هذا الانسان والنظام الديمقراطيان في مصر بعدئذ ؟

هزلا ، دبت فيهما الامراض خلال الثلاثينات ، بلغ ضعفهما درجة كبيرة خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم حشرجا بعدها ، لفظا انفاسهما مع انقلاب تموز عام ١٩٥٢ ، ولم يكلفاه غير قليل من الجهد من اجـل القضاء عليهما .

وكما ان الانسان والنظام الديمقراطيين انتشرا بدءا من مصـر ، فقد انحسرا ـ ايضا ـ بدءا من مصر ، ثم تتالى الانحسار عن سوريـة والعراق الخ...

ما الاسباب الكامنة وراء انهزام الانسان والنظام الديمقراطيين في منطقتنا ؟

قدم الباحثون اسبابا عدة عللت ذلك الانهزام ، منها : انحسار النفوذ الانكليزي عـن العالم ، ومنهـا : نشر اميركا لمظلة الديكتاتورية العسكرية وغيرهما .

هذه الاسباب خارجية ، وهي ذات اثر محدود في القضاء علـى الانسان والنظام الديمقراطيين لو انهما كانا وثيقي الاتصال والتجذر بتربة المنطقة الحضارية بدليل استمرارهما في مناطق اخرى تعرضت لنفس الظروف كاستراليا وكندا .

يكمن ـ في رأينا ـ السبب الرئيسي الذي ادى الـى انهـزام الانسان والنظام الديمقراطيين في ان القيم الديمقراطية لم تتناسـب مع شخصيتنا الحضارية التاريخية .

***

قامت دعوة أخرى لخلق انسان جديد متماسك في المنطقة، وعماد هذه الدعوة النقل الحرفي لمعطيات الحضارة الاوروبية ، واخذ حلوهـا ومرها ، ونقل اسلوبها ونظرتها ، ونسخ انساننا على شاكلة انسانها . وقد وقف الدكتور طه حسين على رأس هذه الدعوة في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) الذي ألفه بعد استقلال مصر عام ١٩٣٦ .

ليس من شك بأن هذه الدعوة كانت أغبى الدعوات واحمقهـا ، وسرعان ما سقطت نهائيا في الخمسينات .

فلماذا سقطت ؟

سقطت لانها تنكرت لشخصيتنا الحضارية التاريخية ، بدليـل اعتماد التيار الذي ساد بعد ذلك للتراث العربي كاساس من اسسه .

***

قامت دعويان اخريان لخلق انسان جديد في المنطقة هما:القومية السورية في بلاد الشام ، والقومية الفرعونية في مصر .

ومهما قيل في اساس تفكيرهما ومنبعه ، ومدى صوابه وخطله ، ومهما اختلف في ذلك ، فهناك حقيقة لا مجال للاختلاف في تقريرها وهي : انتهاء دورهما ، وانحسار ظلهما عن المنطقة ، وفشلهما .

ما السر في انتهاء دورهما ، وانحساره ؟

يكمن السر في تنكرهما لشخصيتنا الحضاريـة التاريخيـة ، ومحاولتهما القفز فوقها ، بدليل انتصار ثورة ١٩٥٢ من خلال وجهها العربي في مصر ، وانتصار التيار العربي في بلاد الشام .

***

الآن بعد استعراض تاريخ محاولات خلق الانسان الجديد المتماسك في منطقتنا نعود للاجابة على السؤال الذي طرحناه قبل قليل وهو : ما هو الاساس الذي سنبني عليه الانسان الجديد المتماسك ؟ مـا هي الركيزة التي سنعتمد عليها في انشائه ؟

نقول مجيبين على هذا السؤال : ان الاساس الذي يجب ان نعتمد عليه في خلق انساننا الجديد المتماسك هـو شخصيتنا الحضارية التاريخية .

ان محاولة خلق انسان جديد مع ادنـى اهمال لشخصيتنـا الحضارية التاريخية سيبقي على تفكك هذا الانسان ، وبالتالي سيبعدنا عن التماسك الذي يتطلبه التحرير .

ان محاولة خلق انسان جديد مع ادنى اهمـال لشخصيتنـا الحضارية التاريخية سيؤدي الى مزيد من الضياع ، والى مزيـد من تجارب الانهزام والخسائر ، والى مزيد من تجرع الصاب والعلقم .

والمقابل يجب ان يتجنـن الانسـان الجـديد في رحم شخصيتنا الحضارية التاريخية اولا ، حتى تكتب له الولادة الطبيعية ، وبالتالي : الحياة المديدة .

ولا يعني ارتحام الشخصية الحضارية التاريخية ـ ابدا ـ الانغلاق على معطيات الحضارة الغربية ، بل يعني الارتحام اخذ الحضارة الغربية من خلال الزوايا والابعاد التي تتناسب وتتطلبها شخصيتنا الحضارية التاريخية .